الإعلامية وعلم المخاطب في التّراث النحوي وعلاقتهما بالحذف والإضمار

Informativity and the science of the addressee in the grammatical heritage and their relation with deletion and implicitness

آسية عرجة[1]*

1جامعة المدية، (الجزائر)، aa8798952@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/01/01 **تاريخ المراجعة**: 2023/05/12 **تاريخ النشر**: 2023/06/30

ملخص:

في ظل التطور الذي تشهده الدراسات الغربية، لاسيما ما أفرزته من نظريات لغوية قيّمة،تبقى الدراسات العربية القديمة بارزة في الأفق من خلال ما توصل إليه علماؤنا، لاسيما سيبويه، بعدّه الأب الروحي للدراسات العربية، ومن خلال هذا المقال سنحاول أن نبرز سبق الدراسات العربية في مجالي لسانيات النص والتداوليات، بالوقوف على مفهوم جوهري يتعلق بالمخاطَب بعدّه ركنا أساسيا في الخطاب، وما يعلمه ويتعلمه من المخاطِب وقت الخطاب، وهو ما اصطلح عليه العرب : علم المخاطَب – وما يمكن أن نسميه: الإعلامية في الدرس اللغوي المعاصر- وربطه بالمسائل النحوية كالحذف والإضمار.

وقد اهتمت الدراسة بإبراز العلاقة بين الإعلامية بعدّها وافدا غربيا، وبين علم المخاطب بالنظر إليه كمصطلح نحوي عربي أصيل، ثمّ بتتبع المسائل أو النصوص التي يعتريها حذف أو إضمار، وبيان الطريقة التي لجأ إليها النحاة الأوائل خاصة سيبويه لتفسير وتعليل الحذف أو الإضمار...كاشفة أن النظرية النحوية العربية متكاملة، وهذا ما يبرره اهتمام سيبويه بعلم المخاطب، ومنه انطلاقه من الواقع التداولي للغة ووعيه لمركزيته في تشكيل القاعدة.

الكلمات المفتاحية: الإعلامية، علم المخاطب، الحذف، الإضمار، التعريف، التنكير...

***Abstract**: In the light of the development of the Western studies, mainly the valuable linguistic theories, the old Arab studies are still prominent in the horizon thanks to what Arab scientists reached, mainly Sibawaih who is the spiritual father of the Arab studies. We shall try through this paper to show the precedence of the Arab studies in the fields of pragmatism and text linguistics through shedding light on a core oncept related to the addressee who is a basic pillar in discourse and on what the addresser informs and learns during discourse. This is what is called by Arabs the science of the addressee. We can call this also the informativity in the contemporary linguistic lesson and link it to the grammatical issues such as deletion and implicitness.*

The study shows the relation between the informativity as a strange concept and the science of the addressee as an authentic Arabic grammatical term. Then, it traces back the related issues such as deletion and implicitness and shows the method used by the primary grammarians mainly Sibawayh to interpret and justify the deletion or implicitness. In addition, it reveals that Arab grammatical theory is complementary. This is justified by the interest of Sibawayh in the science of the addressee and, thus, his departure from the pragmatist reality of the language and awareness about its centrality in shaping the rule.

***Key words**: : informativity; science of the addressee; deletion; implicitness; definition; undefinition*

*المؤلف المراسل

تقديم:

من المؤكد أن من سنن التأليف والإنتاج العلمي والبحث في جميع المجالات وعبر العصور والأزمنة، أن ينسج اللاحق على منوال السابق، وقد يتقدم السابق إلى معرفة واكتشاف كثير من الأسرار والعلوم، ومن المؤكد كذلك أن الفكر اللغوي التراثي والمعاصر لا يخرج عن هذه الأسس الابستمولوجية؛ فإذا ما تتبعنا على وفق هذا المنظور مفهوم اللغة ووظيفتها الإعلامية التخاطبية، وما يحيط بها من جزئيات ومصطلحات التخاطب، التداول، الاستعمال، وجدنا التقاءً فكريًا واضح المعالم، يتأسس من العثور على ما توصل إليه اللسانيون الغرب في مباحث الإعلامية والتداولية، موجود في المؤلفات النحوية العربية بعد التنقيب في تراثهم وآثارهم؛ فكثير من مسائل النحو، التعريف، الإحالة، الحذف، الإضمار، لها صلة كبيرة وواضحة بما جاء في تنظير التداولية والإعلامية، وما كان فيهما من أدوات وإجراءات منهجية تطبيقية.

من خلال ما سبق، تتحدد معالم هذه الورقة البحثية، في محاولة المقاربة بين مفاهيم الإعلامية في التّنظير الغربي، ومفهوم الحذف والإضمار في النحو العربي عبر النظر في بعض مسائل عميد المصادر النحوية كتاب "الكتاب" لسيبويه، مع الاستئناس ببعض المأثورات النحوية الأخرى والآراء من كتاب الخصائص لابن جني والجرجاني وابن مضاء والرضي، إضافة إلى شروح بعض هذه المسائل عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح رحمه الله.

ينبغي علينا بادئ ذي بدء أن نحدد مفهوم الإعلامية بعدها مصطلحا تتجاذبه العديد من المجالات والحقول المعرفية، إلّا أنّ الإعلامية هاهنا كونها المصطلح الرئيس في موضوعنا هي أحد المعايير السبعة التي اشتُرط توافرها في النص حتى يُحكم على نصيته، كما سنحاول تبيين الفرق بينها وبين علم المخاطب في التراث النحوي.

أولا: مفهوم الإعلامية:

جاء في العين: ((علم يعلم علما، نقيض جَهِل، ...وما علمت بخبرك، أي: ما شعرت به. وأعلمته بكذا،أي: أشعرته وعلمته تعليما...))1.

كما جاء في معجم متن اللغة: ((عَلِمَه علما: عرفه حق المعرفة، ...علّمه تعليما وعِلَّاما: صيّره ذا علم ...و- الخبر جعله عالمًا به، ...وفرّق سيبويه بين الإعلام والتعليم.

وقال الراغب: الإعلام اختص بما كان بإخبار سريع؛ والتعليم: اختص بما يكون بتكرير وتكثير...))2.

إذن لمادة" "علم" عدة دلالات في اللغة أهمها: المعرفة: ورد في القاموس المحيط: علمه، كسمعه، علمًا، بالكسر: عرفه...، وعلم به، كسمع: شعر، و- الأمر: أتقنه، كتعلمه...وأعلم الفرس: علّق عليه صوفًا ملونًا في الحرب، و-نفسه: وسمها بسيما الحرب كعلّمها، والعلامة: السّمة...3.

إذن كفيلة هذه النصوص بأن تبين لنا أن دلالة "عَلِمَ" ومشتقاتها تدور في فلك التعليم، والشعور، والإخبار، والإعلام وهذا قريب إلى حد ما من التعريف الاصطلاحي كما سيتضح.

أما من الشق الاصطلاحي فتعتبر الإعلامية من المعايير النصية التي اشترط توافرها في النص، ليحكم على نصيته، ويقصد بالإعلامية المعلومات التي يجنيها المخاطب من الخطاب الملقى عليه، وتعرف من طرف أهل الاختصاص بأنّها: العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية، أو الوقائع في عالم نصي في مقابلة البدائل الممكنة4.

إذن فالإعلامية تهتم بالنص من ناحتي إنتاجه وتلقيه، وتعنى بناحية الجدّة وعدم التوقع، وعليه فلكل نص مهما كان إعلامية تتحدد وفق المتلقي، الذي بواسطته تحدد هذه المعلومات.

فالغاية الأولى التي يسعى إليها المتكلم هي إفادة المخاطَب بمعلومات ما، سواء أكانت متوقعةً لديه، أو غير متوقعة، فإذا كانت هذه المعلومات متوقعة فالإعلامية هاهنا تكون منخفظةً، أما إذا كانت مجهولةً غير متوقعة من طرفه فالإعلامية تكون مرتفعةً هاهنا. ومع ذلك تبقى ثقافة المتلقي ومدى إطلاعه هي العامل المؤثر في درجات الإعلامية.

يعرفها "دي بوجراند" على النحو الآتي:" الإعلامية informativity: وهي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم uncertainty في الحكم على الوقائع النصية أو الوقائع في عالم نصي textial في مقابلة البدائل الممكنة ..."5.

كما يعرفها الدكتور نعمان بوقرة في معجمه قائلا: ((يمثل الإعلام أحد معايير النصانية، وهو العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصية في مقابل الوقائع الممكنة، والواقع أنّ كل نص يحمل مجموعةً من المعلومات))6.

إذن إنّما يقصد بالإعلامية تلك المعلومات المختزنة في النص أو الخطاب، والتي من خلالها يمكن الحكم على الوقائع النصية، بمعنى الدراية بتلك المعلومات أو عدم الدراية بها، والمتلقي يكون في موقع توقع أو عدم توقع لتلك المعلومات، "فالوظيفة الأساسية للتخاطب هي الإعلام والبيان المتبادل"7.

والنص يفترض أن يفيدنا بحد أدنى من المعلومات الجديدة، وإلّا لن يكون نصًا في نظر المتلقي8.

ثانيا_ درجات الإعلامية

لقد سبق وأن أقررنا أن الإعلامية تعني العلم الذي يحصِّلُه ويجنيه المخَاطَب من الخطاب، وهذا المُخاطَب يكون في موضع التلقي في ثلاث حالات، إما جاهلا بالمعلومات، أو عارفا بها، أو متوقعا لها، وعلى هذه الأسس تقسم الإعلامية إلى ثلاث:

1- إعلامية من الدرجة الأولى:

تتحقق كفاءة إعلامية من المرتبة الأولى في العوالم الواقعية؛ إذ توجد بدائل كثيرة ويحدث ذلك عند اختيار بديل من الدرجة العليا من الاحتمال9.

أي أنّ المخاطب في هذا الموضع يكون مستوعبا للوقائع المحيطة به مما يجعله أقلّ اهتماما بما يلقى عليه. فتتوافق احتمالاته مع الوقائع النصية.

2- إعلامية من الدرجة الثانية:

عند تجاوز حالات الغياب النص أو التفضيلات، أي عندما تكون الوقائع دون منطقة الاحتمال العليا، فالنتيجة وجود إعلامية من الدرجة الثانية10. هي درجة متوسطة بين الحدين الأعلى والأسفل، تتوافق فيها بعض احتمالات المتلقي مع الوقائع النصية، ويختلف البعض الآخر.

3- إعلامية من الدرجة الثالثة:

وتتحقق في النصوص صعبة الصياغة والمثيرة للجدل الحاد11، فالإعلامية ترتفع وتعلو كلّما ابتعد المتلقي عن العناصر المتوقعة في الخطاب. والجدير بنا أن ننوه إلى أن هذا المصطلح قد لاق العديد من الترجمات، نذكر منها: الإخبارية12، المعلوماتية13، الفائدة.

إن ما جاءت به اللسانيات النصية من مفهوم للإعلامية يلتقي في جزء كبير منه مع ما جاء في التراث النحوي العربي من مثل مصطلح علم المخاطب، فما العلاقة بين الإعلامية وعلم المخاطب، وفيما يكمن الفرق بينهما؟

يطلق عليها الدكتور- عبد الرحمن حاج صالح- رحمه الله، باصطلاح سيبويه: "علم المخاطب"، كما يطلق عليها الإعلام ولا مشاحة في الاصطلاح على قول السلف، وإنما الأجدر التعمق في المعاني، ولكن الأمر المبشر بالخير هو وجود مقابل لهذا المصطلح الوافد إلينا في التراث العربي، والفضل في هذا يعود للحاج صالح -رحمه الله- الذي استنبط هذا المفهوم والمصطلح. وهذا الأمر ينطبق على العديد من المصطلحات الغربية الوافدة إلى الدرس اللغوي العربي والتي لها ما يوافقها أو يقاربها في الدرس العربي، لكن عزف عنها الباحثون العرب ولجؤوا إلى طرق أخرى في الترجمة، على أنّه هناك فرق جوهري بين الإعلامية وعلم المخاطَب كما سيتضح.

يعرف الحاج صالح علم المخاطب قائلا: والفائدة عند سيبويه: هي ما يحصل عليه المخاطَب من علم، وسيبويه لا يستعمل مصطلح فائدة، وإنما يستعمل مصطلح علم الذي يدل على الجانب الإفادي أو الإعلامي لخطاب ما، لا الجانب الدلالي، والفائدة تتعلق بالمخاطَب من ناحية علمه أو جهله أو شكه بالمعلومات التي يتضمنها الخطاب ليس إلاّ14.

علم المخاطَب عند سيبويه هو كل ما يعلمه المخاطَب مما يساعده على فهم واستيعاب الخطاب وكلّ ما تحصل عليه منذ عهد قريب أو بعيد وهو أيضا كل المعلومات العامة- البديهية منها والمكتسبة- التي تحصل عليها منذ نشأته بالتجربة وكل ما يستنتجه من هذه البديهيات بالنسبة لمضمون الخطاب...وأخص من ذلك كل ما يعرفه من موضوع الخطاب الذي هو بصدد تلقيه.

ثم إنّ علم المخاطَب هو أيضا علمه بمواضع الكلم في الكلام فهو علمه بحدود الكلام ومواقع عناصره، وهو مما اكتسبه ويدخل في ملكته اللسانية...15

وعليه فالفرق الجوهري بين الإعلامية، وعلم المخاطَب، يكمن في كون الإعلامية يُعنى بها تلك المعلومات المختزنة في النص أو الخطاب، في حين يقصد بعلم المخاطب كل ما يعلمه المخاطب بمواقع الكلام وعناصره، وهو كل ما اكتسبه، وما سيكتسبه من خلال الخطاب؛ ومن هنا نستنتج أن الفرق بينهما أنّ علم المخاطَب أشمل وأعم من الإعلامية. ذلك أنّ الإعلامية بمفهومها الغربي تحتمل معنيين: الأول هو المعنى البديهي المحتمل والمتمثل أساسا في إفادة السامع بمعلومة ما، في حين يتمثل المعنى الثاني في الجدّة أو تنوع المعلومات16.

لقد أعطى الحاج صالح مفهوما لعلم المخاطب غاية في الدقة والعلمية، إنّه مفهوم يؤكد بوضوح أنّ العرب كان لهم حدس علمي عجيب، ومرونة كبيرة في التعامل مع القضايا اللسانية، كيف لا وقد سبقوا عصرهم وبلغوا مبلغا كبيرا لا يمكن أن نقول حياله إلا أنّ النحو العربي نظرية مترامية الأطراف متكاملة الحدود.

ولم يتوقف النحويون العرب عند مجرد الاعتبار والاهتمام بعلم المخاطب أثناء تقعيدهم للدرس النحوي، بل وراحوا يفسرون ما ورد في التراكيب من عدول في ضوء علم المخاطب، من حذف وتقديم وتأخير وإضمار، والأهم من هذا وذاك أنهم قاموا بتحديد درجات علم المخاطب.

فالإعلامية هذا المصطلح الغربي اللساني الوافد إلينا هو في الحقيقة مفهوم عربي نشأ في أحضان علوم العربية من نحو وبلاغة لكن بمصطلح آخر وبمفهوم أكثر اتساعا وشمولية وفق ما يتناسب مع لغتنا العربية، لكن المنظرين العرب لم يفصلوه عن الدرس النحو أو حتى البلاغي الذي كان درسا تطبيقيا لا تنظيريا مما جعلهم يغفلون عن التفخيم والتخصيص بل جعلوا له وزنا كبيرا راسخا في أذهانهم عند التنظير للدرس العربي، وهذا ما كان دارجا آنذاك، فهم لا يحتاجون إلى تعريف أو تخصيص، كانوا يخاطبون أبناء لغة واحدة أصيلة ضوابطها كامنة في أذهانهم فهم لا يحتاجون إلى ترتيب وتفسير وتنظيم.

علم المخاطَب عند سيبويه هو كل ما يعلمه المخاطَب من قواعد وقوانين ومعلومات ومعارف تساعده على فهم الخطاب وكلّ ما تحصل عليه منذ عهد قريب أو بعيد وهو أيضا كل المعلومات العامة- البديهية منها والمكتسبة- التي تحصل عليها منذ نشأته بالتجربة وكل ما يستنتجه من هذه البديهيات بالنسبة لمضمون

الخطاب...وأخص من ذلك كل ما يعرفه من موضوع الخطاب الذي هو بصدد تلقيه، وبهذا فإنّ علم المخاطَب له علاقة بدرجات الإعلامية.

وقد أشاد الدكتور الحاج صالح بصنيع سيبويه أيّما إشادة، كيف لا وقد سبق صاحبنا عصره في هذا المجال وتنبه إلى فكرة الإعلام بل وحللها بعمق، وهذا ما أثبت في زماننا في نظرية الإعلام Information Theorie، ويرجع الحاج صالح عدم التفات النحاة لذلك بعده إلى عدم تفطن الناس لمثل ذلك وجدّة النظر، كما أنه لا يخص النحو بمنظوره الضيق بل يشمل كل ما هو تبليغ وتواصل، وهذا وإن دل على شيء فإنّما يدل على عبقرية سيبويه واتساع نظرته وعلميتها17.

ثالثا- الإعلامية عند العرب:

بالنظر في تراثنا العربي يتضح لنا أن نحاتنا- ولاسيما الأوائل- كانوا على دراية بهذه الدرجات، وإن لم يفصحوا عنها بذات الاصطلاح، يتقدمهم سيبويه في كتابه، وهذا ما قال به الدكتور الحاج صالح بعد ما أشاد بصنيع هذا الأخير، فيقول: ((ومن ذلك أيضا ما سبق أن لاحظناه أن للكلام مضمونين اثنين: مضمون دلالي ومضمون إعلامي أو إفادي. وفقدان أحدهما لا يؤثر في المضمون الآخر أبدا، إلا في حالة المحال من الكلام فلا يمكن أن يفيد، ويترتب على ذلك ما يلي:

إنّ الفائدة عند النحاة العرب قابلة للتكميم: فهي إيجابية أو مساوية للصفر وبينهما درجات: المخبر ليس له علم تماما عن الحادث وقد يكون فيه شك فإعلامه عن ذلك إيجابي أو له علم بذلك فإعلامه لغو كما قال النحاة...))18.

لقد اعتنى النحاة العرب بالمخاطب أيّما اهتمام واعتبروا الكلام الذي لا يجني منه فائدة لغوا، ويظهر ذلك جليا من خلال تحديدهم للكلام، فهو مرتبط عندهم بالفائدة وما يحرزه السامع من فهم، والفائدة هي الأخرى مرتبطة بالمخاطَب19.

إذ يُعَرَّف الكلام في اصطلاحهم بأنه: "اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها، بحيث لا يبقى السامع منتظرا لشيء آخر"20.

ويلخص الحاج صالح مفاهيم الكلام عند النحاة؛ حيث يرى أن لهذا الأخير ثلاثة معان عند النحاة العرب، ولاسيما سيبويه وشيوخه21، وهي كالآتي22:

- ✓ الكلام باعتباره خطابا يقابل اللسان أو اللغة بمعناها المحدث.
- ✓ الكلام باعتباره طريقة أو أسلوب في التعبير خاصة بقوم أو جماعة منهم وترادف هاهنا اللغة.
- ✓ الكلام باعتباره وحدة خطابية مستقلة في تبليغ الأغراض، وهي الكلام المستغني عند سيبويه، أو الجملة المفيدة عند من بعده.

لعلّ الهدف من خلال إيراد مفهوم الكلام عند النحاة العرب، إنّما هو تبيان أنّ العرب اعتبروا المبدأ الأساسي لاعتبار الكلام كلاما هو الفائدة، أي ما يستفيده المتكلم من معلومات.

رابعا: علاقة علم المخاطَب بمسألتي الحذف والإضمار عند سيبويه:

1_ الحذف: لغة القطع، وهو ظاهرة تشيع في لغة العرب وتهدف في كل مواقعها إلى التخفيف[23]. "وقد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه . وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[24].

أيّ بترك قرينة تدل على المحذوف، وإنّ لفي هذا القول لتلميح كبير إلى ما يصطلح عليه بعلم المخاطَب؛ إذ لا يكلف المتكلم السامع علم الغيب حتى يفهم المقصود من كلامه فلا يحذف إلا بترك دليل على المحذوف، أي بإدراك منه بأن المخاطَب على علم بالمحذوف ضمنيا نتيجة لمعرفته المسبقة بأحوال الكلام.

فمثال حذف الجملة نذكر- كما قال ابن جني:" فأما الجملة فنحو قولهم في القسم: والله لا فعلت، وتالله لقد فعلت. وأصله: أقسم بالله، فحذف الفعل والفاعل وبقيت الحال" من الجار والجواب" دليلا على الجملة المحذوفة...[25]"

والمحذوفات في صناعة العرب على ثلاثة أنواع:

محذوف لا يتم الكلام إلا به، حذف لعلم المخاطَب به...الثاني: محذوف لا حاجة بالقول إليه، بل هو تام دونه ، وإن أظهر كان عيّا...وأمّا القسم الثالث فهو مضمر إذا أظهر تغيّر الكلام عمّا كان عليه قبل إظهاره[26].

والحذف والإضمار من الأساليب التي من شأنها أن ترفع درجات الإعلامية، خاصة في اللحظات الأولى، لأنه إخفاء للمعلومات مما يلفت انتباه المتلقي ويجعله أكثر اهتماما بالخطاب. هذا فيما يخص الإعلامية بمفهومها الغربي، أما علم المخاطَب فهو العلم المسبق للمخاطَب بمواقع الكلام وما يجري عليه وفقا للمقامات.

وقد استعان النحاة العرب بعلم المخاطَب في توجيه المسائل النحوية التي يعتريها حذف، ذلك أن المخاطِب حينما يلقي خطابا يكون على يقين بأن المحذوف قار في ذهن المتلقي، يقول ابن السرّاج في هذا السياق: ((...والمحذوفات في كلامهم كثيرة والاختصار في كلام الفصحاء كثير موجود إذا آنسوا بعلم المخاطَب ما يعنون...))[27]. وقد لجأ سيبويه إلى توجيه مسألة الحذف في النحو العربي، اعتمادًا على علم المخاطَب، وبّرر الحذف باعتبار المحذوف مقدرًا في ذهن المخاطَب.

فمن الشواهد التي يمكن إيرادها في هذا الباب، قوله: ((...وممّا ينتصب في هذا الباب على إضمار الفعل المتروك إظهاره: ﴿ انتهوا خيرا لكم ﴾، و((وراءك أوسَعَ لك))، وحسبك خيرا لك، إذا كنت تأمر. ومن ذلك قول الشاعر وهو ابن أبي ربيعة:

فَواعديه سَرْحَتي مالِكٍ * أوِ الرُّبا بينهما أسهلا

وإنّما نصبت خيرا لك وأوسع لك، لأنّك حين قلت: ((انته)) فأنت تريد أن تخرجه من أمرٍ وتدخله في آخر[28].

ولعل محل الشاهد هاهنا وبيت القصيد في استشهاد سيبويه بتحليل الخليل، إذ يواصل قائلا: ((...وقال الخليل: كأنّك تحمله على ذلك المعنى، كأنّك قلت: انته وادخل فيما هو خير لك، فنصبته لأنّك قد عرفت إذا قلت له: انته، أنّك تحمله على أمر آخر، فلذلك انتصب ، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام ولعلم المخاطَب أنّه محمول على أمر حين قال له: انته، فصار بدلا من قوله: ائت خيرا لك، وادخل فيما هو خير لك..))[29] .

إذن برّر الخليل هنا انتصاب خيرا على احتساب علم المخاطَب بكونه محمولاً على الأمر، وقد تبعه في ذلك سيبويه، ومن هنا يتبيّن لنا أن هناك علاقة عكسية ترابطية بين العالم اللغوي والمخاطَب والمخاطِب؛ بحيث إذا كان المخَاطِب عند الخطاب يعير علم المخَاطِب اهتماما، فإنّ النحوي يعتمد علم المخاطَب لتفسير المسائل اللغوية.

وكذلك من الشواهد التي ناقشها سيبويه ما قاله في شأن قول القطاميُّ:

فكرّتْ تبتغيه فوافقته * على دمّه ومصرعه السّباعا

ومثله قوله، (وهو ابن رُقيّات):

لن تراها ولو تأملت إلّا ولها في مفارق الرأس طيبا

فقد نُصب" السباع هنا على إضمار الفعل" وافقته ، إذ نجده يقول: " قد علم أن الطيب والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة، وأنّهما قد اشتملا على ما بعدهما في المعنى[30].

ومثل ذلك ما زعمه الخليل في تخريجه لقول الشاعر:

إذا تغنّى الحمام الوُرقُ هيّجني * ولو تغربْتُ عنها أمَّ عمار

قال الخليل رحمه الله: لمّا قال هيّجني عُرف أنّه قد كان ثمّ تذكُّرٌ لتذكرة الحمام وتهييجه، فألقى ذلك الذي عُرف منه على أمّ عمّارٍ، كأنّه قال: هيّجني فذكّرني أمَّ عمّار[31].

كفيلة هي تلك النصوص التي أوردناها أن تبيّن مدى مرونة النحو العربي في التعامل مع هذه القضايا اللغوية من جهة، والبرهنة على أن النحاة العرب قد حللوا الواقع اللغوي انطلاقا من الاستعمال، وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على اتساعية فكرة علم المخاطَب، فهي تشمل كل ما حصّله المتلقي من معلومات خلال مواقف خطابية مختلفة حتى صارت ثوابت وكمنت في علمه وأصبح المخاطِب على علم بأنّ المتلقى عالم بها، وبهذا كانت نظرية علم المخاطَب في تراثنا العربي أوسع وأشمل من فكرة الإعلامية في الدراسات الغربية الحديثة بل وصارت جزءا منها، وهذا كفيل بالبرهنة على سبق العرب لفكرة الإعلامية وبمفهوم أعمق وأوسع في بيئة عربية أصيلة وكفانا بهذا بيانا على أصالة التراث العربي ونفاسته.

إنّ المخاطَب هو المسؤول الأول عن تحديد نمط وطريقة الخطاب، ذلك أنّ المخاطِب يراعي المخاطَب في الخطاب وينتقي أساليبه وفقا لمستوى هذا الأخير، وهذا ما أقره الدكتور محمد يونس علي باصطلاحه، حيث يقول:

((وكذلك فإنّ حال المخاطَب قد تسم الكلام بطابع الإيجاز والتلميح ، كأن يكون المخاطَب لبيبا، أو الإطناب كأن يكون المخاطَب غبيا.

وربّما أرغم المخاطَب مخاطبَه على اختيار نوع خاص من الخطاب دون غيره، وتركيب رسالة خاصة مختارة من حيث مفرداتها المعجمية، وهيئتها التركيبية لأنّها أنسب من غيرها لذلك المخاطب...

وكثيرا ما يحذف بعض أجزاء الكلام نتيجة ثقة من المخاطِب بعلم المخاطَب))[32].

إذن برّر الدكتور يونس حذف المخاطِب لبعض المفردات في الخطاب ثقة منه في معرفة المخاطَب وتقديره للمحذوف.

وقد يحذف الخبر كما يحذف المبتدأ، ويحدث ذاك كثيرا في الجوابات، كأن يقول القائل: من عندك؟ ، فتقول: زيدٌ والمعنى: زيد عندي، إلّا أنّك تركته للعلم به[33].

كما "أجاز سيبويه: ضُرب زيدٌ عمرُو، لأنّك لمّا قلت: «ضُرب » عُلم أنّ له ضاربا، والتقدير: ضربه عمرُو"[34].

ما يمكن أن نقوله من خلال تتبعنا لهذه النصوص أن النحاة العرب قد اعتمدوا في تفسيرهم لمواطن الحذف على علم المخاطَب، وهذا يدل على أنّ العرب لم يحللوا المسائل النحوية وهي بمنأى عن سياقها بل بكل ملابساته من مخاطَب وعلمه، وسياق داخلي وخارجي...، كما يدل على الثقة العميقة المبنية بين المخاطَب والمخاطِب.

2_ التنكير والتعريف وعلاقتهما بعلم المخاطَب:

لقد تناول سيبويه قضية التعريف والتنكير خاصة فيما يخص الابتداء وقال بضرورة البدء بالمعروف، يقول الحاج صالح في هذا الصدد: ((...ولا يخبر عن ذات إلا إذا كانت معروفة عند المخاطب بالتعريف أو أي تخصيص ...لا يحسن أن نقول رجل في الدار إذ لا فائدة فيه لأنّ الإخبار هو عن ذات لا يعرفه المخاطَب))[35].

دعا الحاج صالح من خلال قوله هذا إلى وجوب الابتداء بالمعروف في الخطاب؛إذ أنه ليس من الصواب أن تعلم مخاطَبا عن شيء هو يجهله، فلا فائدة من ذلك، وعليه لن تتحقق الغاية المنشودة من الخطاب ألا وهي الإعلام والبيان.

وفي سياق غير بعيد من هذا يتحدث سيبويه عن بلاغة التقديم، إذ يقول: "وقد يكون في الأمر والنهي أن يُبنى الفعل على الاسم، وذلك قولك: عبد الله اضرِبْه، ابتدأت عبد الله فرفعته بالابتداء، ونبهت المخاطَب له لتُعرِّفه باسمه"[36].

فالغاية التي لأجلها ابتُدئ بـ" عبد الله" هي تنبيه للمخاطَب من أجل إعلامه باسمه.

ويبيّن سيبويه في معرض حديثه عن النكرة الفائدة من الإخبار عن النكرة، فيقول: ((وإنّما حَسُنَ الإخبار عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأنّ المخاطَب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا))[37].

ويعرض سيبويه لحالات الإخبار عن النكرة من خلال واقعها الاستعمالي مبيّنا الأقبح والأحسن، وفقا لما يجنيه المتلقي من فائدة من الخطاب، فيواصل قوله: ((وإذا قلت: كان رجل ذاهبا، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله.

ولو قلت:كان رجل من آل فلان فارسا حَسُنَ، لأنه قد يحتاج إلى أن تعلمه أنّ ذلك في آل فلان وقد يجهله، ولو قلت كان رجل في قوم عاقلا لم يحسن؛ لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا عاقل وأن يكون من قوم، فعلى هذا النحو يحسن ويقبح))38.

دائما سيبويه أثناء حديثه في بعض المسائل النحوية، يعتمد منهج الشك لدى المخاطَب ومدى علمه بواقع النص، من عدمه وهذه إشارة منه إلى درجات الإعلامية. كما أن في حديثه إلحاح على إبراز اعتبار للمخاطَب، فكل التراكيب التي عرضها سيبويه هي سليمة نحويا إلا أنّها من ناحية الإفادة وجدة المعلومات غير جائزة، وهذا ينفي الاتهامات الموجهة للنحو العربي من أنه مجرد قوالب صورية للكلام، بل هو نحو مستوحى من واقع الخطاب إنه نظرية نضجت واكتملت على أيادي روادها الأوائل وفق ما تمليه الطبيعة اللغوية.

ويواصل سيبويه الحديث عن التقديم والتأخير في هذا الباب، فيقول: ((والتقديم والتأخير في هذا بمنزلته في المعرفة وما ذكرت لك من الفعل.

وحسنت النكرة هاهنا في هذا الباب لأنك لم تجعل الأعرف في موضع الأنكر، وهما متكافئان كما تكافأت المعرفتان، ولأن المخاطَب قد يحتاج إلى علم ما ذكرت لك وقد عرف من تعني بذلك معرفتك))39.

إذن أجاز سيبويه هاهنا التقديم والتأخير بينهما -أي المبتدأ والخبر- على الرغم من أن كلا منهما نكرتان، وبرر ذلك باحتياج المخاطب إلى أن تعلمه، وأنه ممكن قد عرف ما تعرفه أنت. وهنا تبرز ظاهرة توقع المتلقي للخبر.

وهذا ما قال به الرضي الاستراباذي: ((إذا حصلت الفائدة فاخبر عن أيّ نكرة شئت، وذلك لأن الغرض من الكلام إفادة المخاطَب مضمون الكلام...))40.

على الرغم من أنه قد قال في موضع آخر أن الابتداء بالأعرف أقوم وأحسن: ((لأن الابتداء إنّما هو خبر، وأحسنه إذا اجتمع نكرة ومعرفة أن يبتدئ بالأعرف؛ وهو أصل الكلام)) 41.

إلا أنه سوّغ الابتداء بأيهما رغم كونهما نكرتين اعتبارا للمخاطَب، واحتمالا لمعرفته بالمعلومات المتضمنة في الخطاب.

الخاتمة:

لعلّ أبرز النتائج التي أسفر عنها البحث في رحاب الإعلامية وتجلياتها في تراثنا النحوي بخاصة عند سيبويه، ما يأتي:

– الإعلامية من المعايير النصية التي أفرزتها لسانيات النص، كما أنّها من المعايير التي تتعلق بالواقع الاستعمالي للغة وبالمخاطب، ويقصد بها تلك المعلومات المختزنة في الخطاب.

– نجد في التراث النحوي العربي مفهوما عربيا أصيلا هو علم المخاطَب وهو قريب من مفهوم الإعلامية لكنه أوسع وأشمل منه، ويمكن أن نقول أنّ لعلم المخاطب بعدّه المعرفة المسبقة للمخاطَب بأحوال الكلام من حيث المعرفة المعلوماتية أو المعرفة بمواضع الكلم أثرا كبيرا في تحديد درجات الإعلامية التي تتقسم على ثلاث: إعلامية مرتفعة وأخرى منخفظة وثالثة متوسطة تتحدد وفق مدى توقع المخاطَب للمعلومات المتضَمنة في الخطاب، وبهذا كانت نظرية علم المخاطب في تراثنا النحوي أوسع وأشمل من الإعلامية بمفهومها الغربي الحديث.

– لقد كان نحاتنا الأوائل على وعي تام بعلم المخاطب وما يبرر هذا تواتر هذا المصطلح وبكثرة في الكتاب بعدّه المصدر الأول للنحو العربي، ومدى اعتماده من طرف صاحبه في تخريج المسائل النحوية: كالحذف والإضمار والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير بينهما.

– يحتاج التراث العربي – وبخاصة النحو العربي- إلى دراسة مكثفة من أجل تأصيل النظرية العربية اللسانية، التي نجدها مبثوثة في كتبنا القديمة، وسبب ذلك أنّ النحاة العرب الأوائل كانوا يخاطبون أبناء لغة واحدة أصيلة ضوابطها كامنة في أذهانهم فهم لا يحتاجون إلى ترتيب وتفسير وتنظيم، لكن في وقتنا الراهن ونتيجة لنفور الأغلبية من العربية وفي ظل علم التخصص المتوارد صار لزاما علينا الالتفات لهذا التراث لأنه يشتمل على درر، فمازالت هذه الدراسات تبيّن وتثبت سبق العرب لأحدث النظريات المكتشفة حديثا.

1- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة هلال، ط8، 2008، باب العين واللام والميم معهما، ج2، ص152.

2- أحمد رضا، موسوعة لغوية حديثة، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1379، 1960م، مجلد4، ص194.

3- مجد الدين محمد بن يعقوب فيروز الآبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426ه، 2005م، ص1140.

4- روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1418ه، 1998م، ص105.

5- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، جدار للكتاب العالمي، عمّان- الأردن، ط1، 1429ه، 2009م، ص88.

7- ينظر: المرجع نفسه، ص49.

8- ينظر: بسمة بلحاج، رحومة الشكيلي، كورنيليا فون، راد صكوحي، نور الهدى باديس، بسمة عروس، هشام القلفاط، مقالات في تحليل الخطاب، تق: حمّادي صمود، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، 2008، ص66.

9- روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص253.

10- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، ص89.

11- ينظر: روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص251.

12 - ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص إتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001م، ص86.

13 - ينظر: تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2007م، ص379.

14- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2012م، ص72.

15- المرجع نفسه، ص57.

16 - ينظر: زهراء البرقعاوي، الإعلامية في الخطاب القرآني، دراسة في ضوء نظرية التواصل، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1439هـ، 2018م، ص25،26.

17- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، ص72.

18- المرجع نفسه، ص72.

19- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م. ص223.

20- عبد الله بن صالح الفوزان، دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، دار المسلم، ط1، 2007، ج2، ص23.

21 - ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، ص12.

22 - ينظر: المرجع نفسه، ص14.

23- محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، بيروت، ط1، 1405هـ، 1985م، ص62.

24- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ج2، ص360.

25 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

26- أحمد بن عبد الرحمن القرطبي، الرد على النحاة، تحق: أحمد إبراهيم البنا، ط1، 1399- دار الاعتصام، ص71-72.

27- أبو بكر بن محمد السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1427هـ، 1996م، ج2، ص224.

28- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي سيبويه، الكتاب، تحق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخافجي، القاهرة، ط3، 1408هـ، 1988م، ج1، ص282-283.

29- المصدر نفسه، ج1، ص 283-284.

30- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص285- 286.

31- المصدر نفسه، ص286.

32- محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط2، 2007م، ص157.

33- ينظر: ابن يعيش الموصلي، شرح المفصل للزمخشري، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ، 2001م، ص 240.

34- المصدر نفسه، ص215.

35- عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، ط1، 2016م ، ص158

36- سيبويه، الكتاب، ج1، ص138.

37- المصدر نفسه، ج1، ص54.

38- المصدر نفسه.

39- المصدر نفسه، ص55.

40 - رضي الدين الاستراباذي، شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، تح: د- رحاب عكّاوي، دار الفكر العربي، بيروت، 2000، ج1، ص203.

41- سيبويه، الكتاب، ج1، 328.

مراجع البحث:

المصادر:

1_ ابن يعيش الموصلي، شرح المفصل للزمخشري، تقديم: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1422هـ، 2001م.

2_أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحق: محمد علي النجار، عالم الكتب، ط4، 2006.

3_أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي سيبويه، الكتاب، تحق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخافجي، القاهرة، ط3، 1408ه، 1988م.

4_أبو بكر بن محمد السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1427ه، 1996م.

5_أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة هلال، ط8، 2008.

6_أحمد بن عبد الرحمن القرطبي، الرد على النحاة، تحق: أحمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط1، 1399.

7_ رضي الدين الاستراباذي، شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، تح: د- رحاب عكّاوي، دار الفكر العربي، بيروت، 2000.

8_ مجد الدين محمد بن يعقوب فيروز الآبادي، القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426ه، 2005م.

المراجع:

1_ أحمد رضا، موسوعة لغوية حديثة، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1379، 1960م.

2 _أحمد عفيفي، نحو النص إتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 2001م.

3_ بسمة بلحاج، رحومة الشكيلي، كورنيليا فون، راد صكوجي، نور الهدى باديس، بسمة عروس، هشام القلفاط، مقالات في تحليل الخطاب، تق: حمّادي صمود، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة، 2008.

4_ تمام حسان، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2007م.

5_ خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009م.

6_ روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1418ه، 1998م.

7_ زهراء البرقعاوي، الإعلامية في الخطاب القرآني، دراسة في ضوء نظرية التواصل، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 1439ه، 2018م.

8_ عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، ط1، 2016م.

9_ عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2012م.

10_ عبد الله بن صالح الفوزان، دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، دار المسلم، ط1، 2007.

11_ محمد سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، بيروت، ط1، 1405ه، 1985م.

12_ محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت- لبنان، ط2، 2007م.

13_ نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، جدار للكتاب العالمي، عمّان- الأردن، ط1، 1429ه، 2009م.